حركة الشيخ عثمان بن فودى الاصلاحية
في غرب أفريقيا واثارها الدينية

د. عبد الله عبد الرازق ابراهيم
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
بجامعتي القاهرة وقطر

تمهيد :

انتشر الدين الإسلامي في مناطق كثيرة من غرب أفريقيا ، وقامت دول إسلامية على أنقاض الإمارات الوثنية مثل دولة مالي التي ساهمت بنصيب كبير في نشر الدعوة الاسلامية خصوصا عندما ذهب ملوكها إلى أداء فريضة الحج في مكة المكرمة ، وعادوا حاملين لواء هذه الدعوة ومنهم على وجه الخصوص نذكر السلطان منسي موسى (١٣٠٧ - ١٣٣٢) والذي كان موكب حجه في عام ١٣٢٤ ومروره على مصر والبلدان الإسلامية الأخرى من أهم العوامل التي جعلته من أكبر دعاة الإسلام في غرب القارة بعد أن أمتدت دولته إلى مدينة جاو في بلاد النيجر حاليا . واخترق الصحراء الكبرى وتوغل في المنطقة الاستوائية جنوبا . (١)

وبعد انهيار دولة مالي ظهرت دولة صنغي على انقاض هذه الدولة وحمل ملوكها لواء الدعوة الإسلامية ابتداء من القرن الرابع عشر وتوسعوا أيضاً ناحية الجنوب ، وظلوا يمارسون هذا الدور حتى أواخر القرن السادس عشر عندما تعرضت هذه الدولة للغزو المراكشي من بلاد المغرب بعد الحملة التي قام بها القائد جودار باشا ، ودخل عاصمة هذه الدولة (مدينة تمبكت) وقضي على ما بقي من ملوك صنغي في عام ١٥٩١ م وذلك عندما أرسل المنصور السعدي سلطان مراكش بعد انتصاره على البرتغاليين في معركة وادي المخازن في عام ١٥٧٨ هذه الحملة الى صنغي للحصول على الذهب الذي اشتهرت به هذه الدولة . واستطاع جيش المنصور السعدي المكون من أربعة آلاف جندي أن يدخل تمبكت وينهي دور هذه الدولة الاسلامية . ولتصبح قصة الغزو المغربي أحلك حلقة من حلقات التاريخ الدامي بالنسبة للممالك الاسلامية في القارة .

لقد كان أثر هذا الغزو مدمرا حيث ساءت أحوال السودان الغربي ، وعاش الناس في عزلة اقتصادية ، وتشرد العلماء ، وتم سجن رجال الدين ، وصادر المغاربة أملاكهم ، وهرب أغلب المشتغلين بالعلم الى المشرق الاسلامي ، وعاث المغاربة فسادا في هذه المناطق الاسلامية ، وصارت طبقة الرماة المغاربة هي الطبقة الارستقراطية ، وبدأت غارات البدو من الطوارق على هذه المدن الاسلامية ، وانقسمت الدولة إلى عدد من القبائل المتنافرة ، بل والمتنافرة ، ولم تعد هناك دولة تجمع شعوب المنطقة تحت زعامة واحدة ، وعاد السكان إلى الديانات المحلية الوثنية ، وصار الدين الإسلامي غريبا بين سكان هذه المناطق ، وبالتالي اختلطت البدع والعادات الوثنية بالقيم الدينية . ولم يعرف السودان الغربي سوى السلب والسطو والنهب والحرب المستمرة ، والصراعات الدائرة على السلطة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وباختصار جاءت حملة المنصور السعدي إلى غرب أفريقيا تحمل معها الخراب والدمار بدلا من العلم والمعرفة ، وقطعت أواصر النسب والارتباط بين شعوب المنطقة .

ولم ينقـذ هذه المنطقة من حالة الفساد والفوضى إلا بعد ظهور جماعات الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودى الذي أعلن ثورة الجهاد الاسلامي ضد الوثنيين ، وضد الحكام المسلمين الذين عرفوا من الإسلام مظاهره ، ونسوا تطبيق الشريعة في أمور حياتهم ، وكان ظهور هذا الشيخ بداية الصحوة الإسلامية الكبرى في غرب أفريقيا ، كما كان إعلانه الجهاد الإسلامي في أوائل القرن التاسع عشر بداية مرحلة جديدة في تاريخ غرب أفريقيا ، وفي منطقة شمال نيجيريا التي كون فيها إمبراطورية الفولاني التي حملت عبء هذه الدعوة الإسلامية[٢] .

وقبل الحديث عن دعوة الشيخ عثمان وجهاده للقضاء على البدع والخرافات ، يجدر بنا أن نلقي نظرة عن شعب الفولاني الذي قاد الجهاد ، وأحوال المنطقة سياسيا واجتماعيا ، وعلاقة هذه الحركة بالدعوة السلفية الكبرى في شبه الجزيرة العربية ، وذلك حتى تكتمل صورة هذا الجهاد في غرب القارة .

من هو شعب الفولاني الذي قاد الجهاد الاسلامي ؟

لقد اختلف المؤرخون حول أصل هذا الشعب ، وانقسموا شيعا وأحزابا ، ويرى المؤرخ الفـرنسي ديبـوا (Dubois) بأنهم من الـبربـر ، وأنهم انحدروا من منطقة أدورار شمال بلاد السنغال ، وأنهم اندفعوا الى غرب أفريقيا بعد طرد المسلمين من الأندلس ، واشتغلوا بالزراعة والرعي[٣] .

ويرى عالم الأجناس البريطاني سلجمان (Seligman) أن الفولاني قد انتشروا تدريجيا في السودان الغربي وأعالي السنغال خلال امبراطورية غانا ، وأنهم شقوا طريقهم الى بلاد الهوسا في نهاية القرن الثالث عشر ، وأصبحوا قوة مسيطرة في هذه المنطقة بعد إعلان الجهاد الإسلامي في القرن التاسع عشر[٤] .

ويرى المؤرخ المصري ابراهيم طرخان أن الفولاني من مصر العليا ، وأنهم هاجروا غربا عبر ساحل شمال أفريقيا إلى المحيط الاطلنطي ، حيث استقر البعض منهم ، وواصل البعض الآخر رحلته جنوبا واختلطوا ببلاد الهوسا ، واعتنقوا الدين الإسلامي ، ولكنهم ظلوا من الرعايا المناوئين لحكام الهوسا أو غيرهم[٥] .

أما المؤرخ البريطاني فيج (Fage) فيرى أنهم نزحوا من حوض النيل وأنهم من أصل حامي وأنهم دخلوا بلاد السودان عن طريق مصر[٧] .

ويـطالعنـا مؤرخ آخـر يدعى جونستون (Johnston) بأنهم جاءوا أساسا من الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا ، وأنهم شعب شق طريقه تدريجيا حول القارة الافريقية حتى منطقة سانجامبيا في مصب نهر السنغال ، ومع مرور الزمن تحركت هذه الجماعات نحو الشرق على طول بلاد السودان الغربي[٦] .

وتتشعب الآراء ، وتختلف التفسيرات حول أصل هذا الشعب ، بل ويرى بعض المؤرخين أنهم ينتمون الى ذرية سيدنا ابراهيم واسحق عليهما السلام في الوقت الذي يعتقد الفولاني أنهم من سلالة عقبة بن نافع (٧) .

لكن مهما اختلفت الآراء ، فإن الفولاني انتشروا في كل السودان الغربي كرعاة بدو مستقلين ، وأنهم كانوا يدفعون الضرائب الى الحكام المحليين ، وأنهم اعتنقوا الدين الإسلامي منذ القرن الحادي عشر على أيدي المرابطين ، وأنهم تحمسوا للدعوة الإسلامية ونشروها في دولة غانا ، وعاشوا في ظل دولة مالي يمارسون حياتهم الخاصة ، وكانت جماعة منهم قد انتقلت الى بلاد الهوسا منذ القرن الثامن عشر ، واستقرت جماعة منهم في إمارة جوبير ، وهي الامارة التي شهدت ميلاد أكبر حركة إصلاحية في غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر بزعامة الشيخ عثمان بن فودى .

وإذا كنا قد تحدثنا عن الشعب الفولاني الذي قاد مسيرة الجهاد في القرن التاسع عشر ، فإن الأمر يتطلب استعراضا للمنطقة التي ستكون مسرح هذا الجهاد ونواة الدولة الاسلامية الكبرى ، وبداية انطلاق حركات الإصلاح في جميع مناطق غرب القارة .

إن منطقة جهاد الفولاني بزعامة الشيخ عثمان بن فودى هي بلاد الهوسا التي تقع حالياً ضمن الجزء الشمالي من دولة نيجيريا . والهوسا ليسوا مجموعة قبلية ، بل انهم ينتمون إلى أصول جنسية مختلفة ، يتحدثون لغة مشتركة هي لغة الهوسا ، وقد ظهرت هذه الجماعة نتيجة الهجرات من شمال أفريقيا إلى السدوان الغربي ربما في القرن العاشر الميلادي ، ثم اختلط المهاجرون مع السكان المحليين ، ونتج عن ذلك ظهور مجتمع جديد اتخذ من النظام العشائري أسلوباً له في الحياة ، ولم يخضع لأي سلطة مركزية ، وقام المهاجرون ببناء المدن المسورة ، ونشأت المدينة الدولة التي سيطرت على الريف المجاور .

وفي القرن السادس عشر سيطرت أمبراطورية البرنو على هذه الدويلات التي صارت تعرف باسم دويلات الهوسا السبع وهي دورا وكانو ورانو وكاتسينا وزازو وجوبير وجارون جاباس .

ودخل الدين الإسلامي الى هذه الامارات في أوائل القرن الرابع عشر ، وقامت نظم ثابتة للحكم استمدت نصوصها وتعاليمها من الشريعة الإسلامية ، وتكونت المدينة الدولة ، وقامت صناعات على خام الحديد ، وراجت التجارة عبء الصحراء الكبرى إلى شمال أفريقيا .

ورغم انتشار الإسلام في هذه الامارات ، إلا أن الوثنية ظلت سائدة بل واختلطت البدع والخرافات مع المفاهيم والتعاليم الإسلامية ، وتبادل الحكام الوثنيون السلطة ومراكز القوة في هذه

الامارات ، وظهرت المنافسة التجارية بين إمارات الهوسا ، وكانت السلطة السياسية هي التي تحدد مصير كل إمارة لأن الصراع كان يتركز حول كيفية الوصول الى حدود آمنة وثابتة ، وبرزت قوة كل من إمارات كانو وكاتسينا وكيبي وجوبير . وفي القرن السابع عشر انهارت إمارة كيبي وبـرزت زمغـرا كأقوى الامارات في أوائل القرن الثامن عشر وبسطت نفوذها على غيرها من الامارات ، ورغم هذا فقد فشلت في تكوين دولة موحدة في تلك الفترة لأن الضعف كان قد انتاب الإمارات ، وصار الصراع طابع الحياة السياسية ، كما كان ظهور إمارة جوبير من أهم العوامل التي ساعدت على القضاء على إمارة زمغرا(٨) .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، استطاعت امارة جوبير انتزاع السيادة من إمارة زمغرا ، وتصارعت مع كل من كاتسينا وكيبي وكانو . وقد أدى هذا الصراع المستمر الى خلق جو من الانقسـام والتفكك وعدم الاستقرار . وأدى ذلك الى استنزاف موارد الامارات ، وتضييع الطاقات البشرية في هذه الصراعات ، ورغم نجاح جوبير في ضم إمارة زمغرا عام ١٧٦٤ إلا انها لم تتمكن من توحيد بقية الامارات أو تكوين دولة واحدة تشمل كل بلاد الهوسا .

في هذا الجـو الـذي تحكمـه الصراعات المحلية والمفاسد الدنيوية ، نسي الناس أصول الدين ، وتفشت البدع والعادات الوثنية ، وصار الحكام المحليون لا يعرفون كثيراً عن دينهم ، بل وتقلد السلطة بعض الوثنيين . وكانت الجماعة الوحيدة التي ظلت متمسكة بالقيم الاسلامية هي جماعـة الفـولاني التي مارس رجـالهـا أعبـاء نشر الدعوة ، وصار منهم القضاة والمدرسون والأئمة . وبذلت هذه الجماعة جهدا كبيرا لنشر الدعوة الاسلامية بين حكام يدينون بالاسلام شكلا ومظهرا ، وتصدى رجال الدين لهذه القيادات الوثنية ، وأصبح الطريق ممهدا لنشر مبادىء الدين الحنيف على أسس سليمة هو طابع الحياة في هذه المرحلة ، وكان التحدي من جانب الحكام المحليين في امارات الهوسا وخاصة في امارة جوبير الدافع الأساسي لقيام أكبر حركة جهاد شهدتها المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر .

وعنـدمـا أحس أحـد أبناء الفولاني المسلمين بما ألم بالدين على أيدي هؤلاء الحكام شبه الـوثنيين ، أعلن الجهاد في سبيل الله لاعادة الدين الاسلامي أصوله وقواعده ، وصارت أمارة جوبير هي الساحة التي انطلقت منها هذه الثورة الاسلامية ، التي غيرت مجرى حياة السكان ، وأعادت للدين الاسلامي هناك مكانة لم يحققها في القرون السابقة ، وصار الجهاد الفولاني لاخماد البدعة وأحياء السنة هو العمل الكبير الذي قام به الداعية والمجاهد عثمان بن فودى .

ويجدر بنا ان نتوقف قليلا لنستعرض سيرة هذا الزعيم الذي كان له ولحركته الاصلاحية

فضل كبير في نشر الدين الاسلامي على نطاق واسع في غرب أفريقيا ، ولازالت نيجيريا تدين حتى يومنا هذا لحركة ذلك المجاهد الذي جعلها أكبر دولة اسلامية في غرب أفريقيا .

لم يتوقف جهاد هذا الرجل عند حدود اعلان حرب على الوثنيين ، بل تعداه الى إقامة دولة اسلامية حملت لقب الخلافة الاسلامية في سوكوتو ، وظل أبناؤه يحكمون في هذه الدولة الواسعة طوال قرن من الزمان ، وكان لأحفاده شرف النضال والكفاح ضد الأوروبيين الذين جاءوا غازين لديار الاسلام والمسلمين ، فكانوا حماة الدين وشهداء العقيدة الاسلامية في غرب أفريقيا أوائل القرن العشرين .

أولا : ظهور الشيخ عثمان واعلان الدعوة الاسلامية :

لقد كان ظهور الشيخ عثمان بن فودى في امارة جوبير ، ايذانا بقيام دولة اسلامية في غرب أفريقيا . ولد هذا الشيخ في مكان يدعى مارتا في أرض جالمى بامارة جوبير في ١٥ ديسمبر عام ١٧٥٤ ، واشتهر والده باسم فودير أو فودي (Fodi) التي تعني بلغة الفولاني «المتعلم» ، وانتقلت أسرته الى ديجل (Degel) حيث حفظ القرآن الكريم ، وعاش في بيئة متدينة ، وعندما بلغ مرحلة الشباب تفتح عقله وازدادت مداركه ، واندهش لحال المسلمين في تلك الجهات حيث ظهر الدين أمامه وقد شابته البدع ، واختلطت به الخرافات وعبثت به أيدي المضللين[٩] .

ولما بغ العشرين من عمره بدأ حلقات التعليم ، وسلك طريق القادريين حيث كانت الطريقة القادرية أكثر انتشاراً في غرب أفريقيا ، ويصفه أبنه بأنه نشأ عفيفا متدينا ، ذا خلال مرضية ، وهو عالم العلماء ورافع لواء الدين ، أحيا السنة ، وأمات البدعة ، ونشر العلوم ، وكشف الغموم ، وبهر علمه العقول ، فسر القرآن سنين عديدة ، وبث العلوم فملأ القطر المغربي معارفا وتلاميذا وكان فصيحا ، فاضلا ، حسن الخلق جميل العشرة[١٠]

ونظراً لأن الحديث عن الشيخ طويل ، وحياته حافلة بالنضال والكفاح ، لانه وهب نفسه لخدمة الدين الاسلامي ، وأعلن حربا لا هوادة فيها على المشركين ، فسنحاول التركيز على دوره الجهادي والأحداث التي جعلت منه قطبا لكل أفريقيا الغربية . فبعد ان حفظ كتاب الله واهتدى بسنته ، واحتك بعلماء عصره سواء بطريق مباشر أو غير مباشر توافدت عليه جموع المسلمين ، وازداد اتباعه يوما بعد يوم . الأمر الذي أقلق مضجع أمير جوبير ، فحاول اعتراض طريقه ، بل ووافق على قيام مجتمع اسلامي في مدينة ديجل وبدون ان يتعرض للشيخ واتباعه ، لأنه أحس أن الشيخ عثمان لم يكن طامعا في ملك أو سلطان ، بل كان عاكفا على العلم والتغليم[١١] .

مات حاكم امارة جوبير وجاء من بعده حاكم آخر يدعى نافاتا (Nafata) أدرك قوة اتباع الشيخ عثمان ، وأحس بالخطر على ملكه فما كان منه إلا أن أصدر مرسوما يتضمن من الأمور ثلاثة :

أولها : عدم السماح لأي شخص باعتناق الدين الاسلامي إلا من ورثه عن أجداده .

ثانيها : لا يسمح لأحد بلبس العمامة بعد تاريخ المرسوم ، وألا تضرب امرأة بخمارها على وجهها .

ثالثها : عدم السماح لأحد بالوعظ إلا الشيخ عثمان .

واذا حللنا بنود هذا المرسوم النافاتي نجد انه حركة للحد من نشاط الشيخ وعدم السماح لدخول أناس جدد في الدعوة المحمدية ، وعودة النساء الى السفور والخروج عن تقاليد الشريعة الاسلامية ، وقصر الوعظ والارشاد على الشيخ نفسه وكل هذه الأمور تعرقل مسيرة الكفاح والجهاد ، ونشر الدعوة .

كان من الطبيعي أن يعارض فريق من اتباع الشيخ هذه الأوامر ، وخصوصاً عبد الله بن فودى الأخ الاصغر للشيخ وساعده الايمن في حركته الاصلاحية ، فقرر الوقوف بعنف ضد هذه الاجراءات مهما كلفهم ذلك من مشاق ، لكن الشيخ عثمان عارض استخدام القوة لأنه في بداية طريق طويل ، ولا يريد الدخول في صراع مع الطبقة الحاكمة حتى لا تتشتت جهوده ، وتتبدد محاولاته ، وينصرف عن هدفه الاسمي نحو إعلاء كلمة الدين ، ورفع راية الاسلام والمسلمين خفاقة بين السكان الوثنيين . وفي نفس الوقت أدرك الشيخ أن الصدام مع الحكام مؤجل الى حين ، وأن الوقت لم يحن للقضاء على اعداء الدين ، فقبل المرسوم وهو يعلم علم اليقين ان الدائرة سوف تحل على هؤلاء المشركين ، لأنه يؤمن بانتشار الدعوة الاسلامية بالطرق السليمية حتى يحين الوقت لاعلان الجهاد المسلح ضد كل من يقف في سبيل الله والدين .

كان هذا المرسوم بداية مرحلة جديدة من جهاد المسلمين في غرب أفريقيا ، حتى أن بعض المؤرخين يعتبره الطلقة الأولى التي أشعلت نار الجهاد . لكن شاءت الاقدار أن يموت هذا الحاكم في عام ١٨٠٣ بعد قليل من إصدار مرسومه وخلفه ابنه يونفا (Yunfa) أحد تلاميذ الشيخ عثمان ، ووعد الحاكم الجديد بانهاء ما جاء في المرسوم وطاعة أوامر أستاذه والسماح له بحرية الوعظ والارشاد ، لكن شعر هذا الحاكم بخطر الشيخ فانقلب رأساً على عقب ، ووصلت به الحال الى التفكير في قتل سيده وأستاذه ، والتآمر على أتباعه وأعوانه ، وتعقدت الأمور وازدادت العلاقات سوءاً بعد رفض الشيخ أن يسلم أحد رجاله ويدعى عبد السلام لهذا الحاكم الجوبيري الذي هاجم بلدة عبد السلام وقتل الناس وهم نيام في شهر الصيام .

وتمادى هذا الحاكم في إذلال المسلمين وعلى رأسهم الشيخ عثمان ، حيث طلب منه ترك الجماعة ، والعيش في المنفى وحيداً ، لكن الشيخ رفض ترك جماعته ، وقرر التحرك بهم الى مكان بعيد يدعى جودو (Gudo) ، وهنا أصدر الحاكم أمراً بالقبض على الشيخ ، وطلب من حكام الامارات قتل المسلمين ومصادرة أموالهم ، وغزو القرى الاسلامية ، ونهب ما فيها ، فكان هذا العمل بداية الجهاد وإعلان قيام الدولة الاسلامية(١٢) .

بعد هذا أصبح الشيخ قائداً وإماما لجماعة المسلمين من الفولاني الذين وجدوا فيه ارتفاعا لشأنهم ، وتمجيداً لآمال طالما كانوا يحلمون بها فصاروا عدته وصلاحه ضد قوى البغي والضلال(١٣) .

ثانيا : قيام الجهاد وتأسيس الدولة الاسلامية :

كانت الهجرة الى مدينة جودو بداية تأسيس امبراطورية الفولاني التي اتخذت من مدينة سوكوتو عاصمة لها ، وأخذ الشيخ معه الأنصار والاتباع الى أطراف الصحراء ، وهناك اقروا له بالطاعة والولاء ، وحلفوا اليمين على طاعته على الكتاب والسنة ، وحمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ، ذلك اللقب الذي استمر مع الخلافة حتى نهايتها في عام ١٩٠٣ ، كما حمل لقب خليفه في بعض الأحيان ، وهو اللقب الذي حمله أبناؤه وذريته من بعده .

كانت هذه البيعة بداية الجهاد ، وايذانا بتأسيس الخلافة الاسلامية ذلك لأن البيعة كانت تعني نقل الجهاد من الدور السلبي الى الدور الايجابي الجديد ، وانتشرت أخبار الجهاد ضد حكام الهوسا ، وأصدر الشيخ وثيقة «أهل السودان» التي صارت اعلانا رسميا للجهاد حيث حدد الشيخ الأسس التي بني عليها الجهاد ، مثل الهجرة من بلاد الكفار . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واتباع الكتاب والسنة باعتبارهما أهم مصادر التشريع . وقد أقرت الوثيقة هذه المباديء بشكل مفصل ، وأعلنها الشيخ حرباً على الكفار والوثنيين حيث أصر على قتال البغاة . والملك المرتد الذي خرج عن دين الاسلام إلى دين الكفر .(١٤) .

كان الرد العملي على هذه الوثيقة أن أرسل الحاكم الى أخوانه الأمراء في كاتسنا وكانو ودورا يطلب منهم المساعدة لأنه أهمل اطفاء شرارة من النار في امارته حتى اتسعت رقعتها وزادت حدتها ، وصارت فوق احتماله القضاء على خطورتها .

وتعتبر وثيقة أهل السودان من الوثائق التاريخية الهامة التي قام السير بالمر بجمعها والتعليق عليها ، وهي من المخطوطات النادرة التي وقع ناسخها اسمه تحتها ، ويدعى محمد ساعي ابن أمير دورا واسمه اسحق .

وسميت وثيقة أهل السودان لأنها عبارة عن رسالة موجهة ليس فقط إلى أهالي جوبير بل الى كل سكان السودان الغربي ، حيث أعلن الشيخ من خلالها الحرب على كل الوثنيين . وقد تضمنت الوثيقة سبعة وعشرين بندا هي خلاصة المباديء والتعاليم التي نادى بها الشيخ في الفترة الأواى من جهاده . وانتهت الوثيقة كغيرها من وثائق غرب أفريقيا بدون تاريخ مكتوب في آخرها ، كما أنها لا تشير الى شخص معين . ولا موقف محدد ، ولا مكان ما . ومن أهم هذه التعاليم أن الأمر بالمعروف واجب إجماعا ، وأن النهي عن المنكر واجب إجماعا ، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة أجماعا ، وأن تأمير الأمراء في البلدان واجب إجماعا ، وأن الجهاد وأجب إجماعا .

وقد صدرت هذه الوثيقة بعدأن اشتد النزاع ، وتفاقم الخلاف بين الشيخ وحاكم جوبير ، وأصبح التفاهم صعبا بين الطرفين . وهي باختصار خطاب مفتوح يحدد النقاط الرئيسية لتعاليم الشيخ عثمان وشكواه من معارضيه ، كما انها المبر رات لاعلان الجهاد الإسلامي ضد الحكام الوثنيين .

تزعم سلطات جوبير جبهة المعارضة ضد الشيخ عثمان ، وصارت الحرب وشيكة بين المؤمنين والوثنيين ، ولم يجد الشيخ بدا من اعلان الجهاد في سبيل الله ، فلبي تلاميذأ النداء ، لأن ارتباطهم به لم يكن مجرد حلقات درس بل كان الارتباط عميقاً بالحب والتقدير ، فكانوا له مؤيدين تكبدوا المعاناة وتحملوا عيء الكفاح عندما هاجم الشيخ أمارة جوبير وقر ر حاكمها تأديب الشيخ عثمان ، فحدث الالتحام وبدأت الحرب وانتقلت الدعوة من مرحلة السلم الى مرحلة الهجوم المسلح ، بعد ان أغار حاكم جوبير على قرى وممتلكات الموحدين(١٥) .

وفي الرابع من يونية عام ١٨٠٤ تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبدالله بن فودى ، الذي أخلى مواقعه في جودو توقعاً لهجوم من سلطان جوبير واتجه إلى بحيرة تابكين كوتو ، وعلى ضفاف هذه البحيرة أطبق المسلمون على قوات خصومهم ، ودارت عليهم الدائرة ، فهرب من وجد سبيلا لذلك ، وسقط في ساحة المعركة الكثير ، وتفرق شمل الاعداء في أول مواجهة حاسمة في الجهاد ، لكن النصر لم يكن نهائياً ، لأن قوات المشركين عادت بعد أن جمعت قواتها في ١٨٠٥ وبدأت الهجوم من جديد على الشيخ وجماعته ، ودارت معركة تسونسو التى هزم فيها المسلمون ، وراح منهم أكثر من ألف شهيد ، لكن المسلمين صدوا الهجوم . استمرت الحرب سجالا بين الطرفين دون تفوق طرف على الآخر ، وتمكنت قوات الجهاد من السيطرة على امارة كيبي (Kebbi) واتخذتها عاصمة للجهاد ، وتوالى سقوط امارات الهوسا في أيدي المسلمين حيث سقطت زاريا عام ١٨٠٥ ، واستمر النصر حليفا للشيخ واتباعه حتى تحقق النصر ودخل عاصمة

وتسمى الكالاوا في عام ١٨٠٨ ، وتم قتل السلطان يونغا مع عدد من اتباعه ، وانتهت مقاومة الوثنيين ، وصارت كلمة الذين آمنوا هي العليا ، وتوافدت القبائل ذرافات ووحدانا إلى معسكر الشيخ تعلن الولاء والدخول في الاسلام ، والانضمام الى حلف المسلمين ، وتوسعت امبراطورية الفولاني ، وتكونت أمارات جديدة ، وأعطى الشيخ اشارات وأعلام الى اعوانه الذين واصلوا الجهاد في مختلف المناطق من بلاد الهوسا ، وتوسعت الدولة ، ودخل الناس تحت رايات الجهاد ، وانتقل الشيخ إلى مدينة سيغاوا في عام ١٨٠٩ ، بينما استقر ابنه محمد بلو في مدينة سوكوتو .

والملاحظ ـ في معظم دول غرب أفريقيا ـ استخدام اصطلاح امبراطورية مثل امبراطورية البرتو وامبراطورية التوكولور وامبراطورية الفولاني ، واستخدام هذا اللفظ يعني فقط بناء دولة تخضع في سيادتها الى زعيم واحد ، يسيطر على كل مناطقها وعلى كل الحكام الداخلين تحت لوائه ، وقد اختلفت مساحة الامبراطورية من مكان لآخر حسب قدرة زعيم الجهاد على ضم مناطق إلى نفوذه .

ثالثا : الغرض من الجهاد :

تعتبر حركة جهاد الشيخ عثمان من الحركات الاصلاحية الرائدة في غرب أفريقيا ، وكان لنجاحها بهذا الشكل الحاسم ، وانتشارها على نطاق واسع ، وتقبل الناس للمباديء التي نادى بها الشيخ أثر في اختلاف وجهة نظر المؤرخين حول الأهداف الأساسية لهذا الجهاد ، ولكن قبل أن نخوض في هذه الأهداف نلقي نظرة شاملة على أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الشيخ عثمان بن فودى في شمال نيجيريا وهي :

١ ـ ساعد على نجاح هذه الحركة الضعف الذي استشرى في امارة جوبير بعد حروب مستمرة ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر مع امارتي زمغرا وكاتسينا ، كما واجهت هذه الامارة مشكلات داخلية نتيجة ازدياد نشاط حركة الاصلاح التي قام بها الشيخ عثمان من مقره في مدينة ديجل ، ومحاولاته نشر دعوته في الامارات المجاورة مثل مغرا ، هذا بالاضافة الى المشاكل الداخلية والخارجية بسبب قيام كل من كيبي وزمغرا بغاراتها على جوبير في السنوات الأولى من حكم يونغا في عام ١٨٠٢ .

٢ ـ وجود جماعات اسلامية في مناطق متفرقة من الامارة ، حيث كان الشيخ نشطا لمدة ثلاثين عاما قبل اعلان جهاده في عام ١٨٠٤ ، وانضم إليه عدد كبير من الاتباع المخلصين في ديجل وفي مختلف أنحاء امارة جوبير ، وعندما أعلن الشيخ الجهاد صارت هذه الجماعات محور الارتكاز

لنشاطه وساعده الايمن في جهاده ، ومصدر الطاقة البشرية التي استند عليها ، وصار قواد هذه الجماعات وكلاء عنه في حرب الجهاد ضد الوثنيين[1] .

٣ ـ لقد كان لأحياء الثقافة العربية في أواخر القرن الثامن عشر أثره في قيام حركة الجهاد حيث ساهم زعماء الحركة بقسط وافر في التمهيد لهذه الحركة ، مما جعل الناس يتقبلون هذا الجهاد ، وكانت الكتب والقصائد الشعرية قد بصرت المسلمين بأحوالهم ، وأخذت ترثي حالهم في السودان الغربي ، وتدعوهم الى قبول حركة الاصلاح ، والعودة الى المثل والقيم التي تضمنتها الشريعة الاسلامية ، وهكذا هيأت المؤلفات الأدبية والدينية ـ لزعماء الجهاد ـ النفوس للجهاد الاسلامي .

٤ ـ من العوامل الهامة التي ساعدت على نجاح الجهاد ذلك الدور القبلي في بلاد الهوسا ، ورغم ان الجهاد لم يكن حربا بين قبائل الهوسا والفولاني ، إلا أن الاختلافات القبلية قد زادت من حدة الصراع ، وكان علماء الفولاني هم الركيزة الأساسية في الجهاد حيث يمثلون طبقة الصفوة ، نظراً لما كان لديهم من مهارات وقدرات في النواحي الادارية والعسكرية ، بالاضافة الى ذلك القدر من الثقافة والعلم ، مما مكنهم من تقلد المناصب الرئيسية في الوعظ والارشاد والتعليم . وبسبب روابط الاخوة والجنس فقد مالوا الى اخوانهم من الفولاني الرعاة الذين تعاطفوا مع بني جنسهم عند اعلان الجهاد .

أما عن الأسباب الحقيقية لجهاد الشيخ عثمان فيمكن أن نحددها في النقاط التالية :

(أ) يرى فريق من المؤرخين المعاصرين للشيخ عثمان بن فودى وعلى رأسهم الشيخ محمد الأمين الكانيمي في بورنو ان الجهاد يخفي وراءه أطماعا سياسية غلفها الشيخ بثوب الاصلاح الديني ، لكن محمد بلو بن فودى قام بالرد على هذه الافتراءات على الشيخ وحركته في سلسلة من الرسائل فند فيها تلك الحجج موضحاً ان الجهاد حركة دينية هدفها الأساسي تحويل إمارات الهوسا الى الدين السلامي الحنيف .

(ب) يرى فريق آخر أن حركة الجهاد هي ببساطة ثورة لرفع شأن الفولاني ضد سياسة الهوسا ، أي أنها ثورة خططت ووضعت من أجل مساعدة الفولاني للسيطرة على أمور البلاد ، والسعي نحو تحقيق امتيازات كانوا قد حرصوا منها في عصور سابقة[1] .

(جـ) حاول بعض المؤرخين تفسير الجهاد على أنه حركة اجتماعية ، وأنه حرب ضد الفساد والارهاب والظلم الذي كان سائداً في تلك الفترة ، ويضيف أصحاب هذا الرأي أن الجهاد

يعتبر تمرداً من الفلاحين ضد أسيادهم من حكام الهوسا ، وأن الشيخ عثمان كان يهدف الى الاصلاح الاجتماعي ، ومحاربة كل الأمور التي تخالف الشريعة الاسلامية .

(د) حاول أحد المؤرخين التوفيق بين كافة الآراء المختلفة ، فحدد أهداف الجهاد في أنه يمثل مرحلة استطاعت الأفكار الاسلامية ان تشق طريقها الى المجتمع ، وان تؤسس مجتمعا اسلاميا في أفريقيا جنوب الصحراء ، مثل المجتمعات التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية (الوهابية) ، أو في شمال أفريقيا (السنوسية) ، أو حركة الحاج عمر الفوتي (السنغال) ، وأن هذه الحركة لم تكن قاصرة على الفقهاء من الفولاني ، بل هي حركة شمولية لقيت استجابة من الهوسا والفولاني على حد سواء . فهي محاولة جادة للاصلاح مجردة من شبهة الجنس أو الرغبة في الملك ، وان الشيخ اضطر الى الاستعانة ببني جنسه حين حق عليه الجهاد ، فاتخذت طابعاً قومياً دينيا اصلاحياً[١٨] .

لقد لخص الشيخ عثمان بين فودى الهدف من هذا الجهاد حيث أوضح في (وثيقة أهل السودان) أن الغرض الأساسي من الجهاد هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والهجرة من بلاد الكفار ، وتنفيذ أحكام الشرع .

وعلى كل حال ، ومهما اختلفت الآراء حول الجهاد والاصلاح الديني الذي أعلنه الشيخ عثمان بن فودى في غرب أفريقيا ، فإن هذه الحركة قد غيرت أسلوب الحياة السائد في بلاد الهوسا ، وظهر مجتمع جديد تحكمه طبقة جديدة من رجال الدين والعلماء الذين لم يكونوا من أصول ملكية . بل رفعهم الدين الإسلامي إلى مصاف الأمراء . وبالتالي اختلف طابع الحياة السياسية . وبدلاً من سيطرة الحكام المحليين على أمور هذه البلاد ظهرت طبقة جديدة تسير وفق انماط جديدة في الحياة تختلف عما كانت سائدة في هذه الأرجاء من نظم وتقاليد ، وقد ساعد هذا على نشر الدين الاسلامي وتطبيق شريعته في كل منحى من مناحي الحياة ، ويرجع هذا الى جهود الشيخ عثمان الذي أخلص في عقيدته ، وكرس جهده من أجل نجاح حركته ، فكانت حركة مباركة ، انتهت بتأسيس دولة اسلامية كبرى ، تضم أقاليم شاسعة في غرب أفريقيا في كل بلاد الهوسا والمناطق المجاورة في برنو والكانم ، والمناطق الجنوبية في كيبي واللورين ، أي مناطق تمتد من بحيرة تشاد شرقا حتى منحنى النيجر غربا ، ومن الغابات الاستوائية جنوبا حتى الصحراء الكبرى شمالا[١٩] .

أما عن الأوضاع الاجتماعية في الدولة التي أقامها الشيخ عثمان بن فودى فقد ترتب على جهاده في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن صار الدين الاسلامي أساس النظام السياسي

والاجتماعي في الدولة حيث تقلد رجال الدين والعلماء مناصب التدريس والقضاء ، وكان طبيعيا أن يتمتع الحكام في الإمارات المختلفة بثقافة إسلامية تمكنهم من ممارسة أعباء وظائفهم ، وتيسر لهم سبل مباشرة تطبيق الشريعة الاسلامية .

ولم تكن طبقة رجال الدين قاصرة على فئة معينة من السكان ، بل كانت مفتوحة لكل من تعمق في الدين ، وثبت أقدامه على طريق النصح والإرشاد والحجة القوية . وقد ظهر الدين الاسلامي في هذه الدولة . وصار أساس تشكيل طبقات المجتمع التي حملت مشعل الحضارة الى القبائل الوثنية ، وساهم التجار المسلمون في عملية التبادل التجاري بين هذه الشعوب والعالم الخارجي وصار الدين الاسلامي أيضاً أداة لتطوير النظام الاقتصادي في الدولة ، وصارت المعاملات الإسلامية أساس التعامل في الأسواق ، وحرم الإسلام شرب الخمر ، وأكل لحوم البشر ، والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات السيئة التي كانت سائدة في المجتمع ، كما أعطى الدين الإسلامي للمواطن الزنجي الحق في أن يصبح مواطناً حراً كريمًا بعد أن حرره من ربقة الرق ، وقضي على التجارة في الجنس البشري[٢٠] .

وظهر أثر الإسلام في جعل القرابة الدموية من ناحية الأب بدلاً من سيطرة السلطة الأمومية في تلك المجتمعات . كما ساعد الدين الاسلامي على تفتيت النظام القبلي تدريجيا ، وانخراط الناس في الدولة الإسلامية ، واتحدت كل القبائل سوياً تحت لواء دولة واحدة .

وبعد أن أقام الشيخ عثمان المجتمع الإسلامي بدأ الناس يحتفلون بالمناسبات الإسلامية الكبرى مثل عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والمولد النبوي الشريف . وحاول الشيخ عثمان القضاء على كثير من العادات السيئة الخاصة بتعدد الزوجات ، وعادات التشريط والندب على الأموات وأحل محلها عادات قراءة القرآن في حجرة المتوفي ، والصلاة عليه ودفنه في مدافن عامة حيث لا توجد شواهد على القبور ، كما حرم الشيخ إشراك النساء في تشييع الجنازة ، وصارت ملابس الحداد الثوب الأبيض للرجال ، أما النساء فليس لهم زي خاص ، ولكن ينبغي أن تظل المرأة في بيتها لا تقابل فيها الرجال ، ولا تتزين طوال فترة الحداد[٢١] .

ومن العادات الإسلامية التي سادت في مجتمع سوكوتو تسمية المولود في اليوم السابع وسط حفل كبير يذبح فيه والد الطفل خروفا أو ثورا ، وجرت العادة على تسمية الطفل باسم أحد الأنبياء أو الصحابة .

وبإختصار فإن المجتمع الذي أقامه الشيخ عثمان بن فودى التزم بتطبيق الشريعة الإسلامية

خصوصا في مسائل الزواج والطلاق ، وتعدد الزوجات ، والاحتفالات الإسلامية الكبرى ، وعليه يمكن القول إن دعوة الشيخ عثمان كانت دعوة خالصة لتنقية الدين الإسلامي من العادات الوثنية التي أقرها حكام الهوسا السابقين لحركة الشيخ الإصلاحية .

رابعا : مؤلفات الشيخ بن فودى :

لقد كان الشيخ عثمان بن فودى أحد الزعماء المسلمين القلائل الذين أثروا في شعوبهم ، وأدوا الأمانة على وجه طيب ، وقادوا شعوبهم بشكل سليم وسط الأمواج المتلاطمة والظلمات الدامسة ، حتى وصلوا الى بر الأمان ، وأنشأوا دولة اسلامية كبرى شملت بلاد الهوسا وغيرها من أقاليم نيجيريا الحالية ، وكانت دعوته شاملة ومتنوعة ، وكان طبيعيا أن يصاحب هذا التحول الثوري في مجمعات غرب أفريقيا الوثنية ومع بداية تأسيس الدولة الاسلامية أن يوضح قائد الجهاد ورائد مسيرة النضال في تلك المجتمعات الزنجية بايضاح وجهة نظره حول أهم المشكلات التي تواجه الناس في حياتهم ، بل وكل القضايا التي تعترض قيام الدولة وتوسعاتها ، فجاءت مؤلفات الشيخ عثمان لتكون نبعا للفكر وينبوعاً للثقافة ، ومرشداً للناس في عالم صار الجهل أبرز سماته ، ولتكون مصدراً للفتوى والتشريع ، وكانت هذه الكتب تشرح الدعوة وتفسر مختلف النظريات ، وتعالج كافة القضايا الفقهية ، وترد على افتراءات الناس حول الدعوة الاصلاحية .

إن من يطلع على مؤلفات الشيخ المتعددة ، يدرك عمق ثقافة هذا العالم الذي كان بليغا ، خطيباً ، شاعراً ، فصيحاً ، فاضلا ، جميل العشرة كريم الصحبة ، شديد المعارضة ، مقطوعاً بولايته وقدراته القيادية .

وتؤكد هذه المؤلفات أن الشيخ عثمان كان واسع الاطلاع على الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الخلفاء الراشدين واتباعهم ، وآراء الائمة الأربعة ، وآراء العلماء المشهورين في غرب أفريقيا مثل الامام السيوطي والامام المغيلي ، والشيخ محمد مختار الكنتي وأستاذه الحاج جبريل بن عمر وغيرهم من العلماء .

وكان الشيخ يهدف من هذه المؤلفات الى اصلاح أحوال العلم والعلماء وتطبيق أحكام الله ، وتصحيح الايمان بشكل يؤدي الى إقامة الشريعة فيما أمر الرسول ونهى عنه والتبصر في الدين ، وأخيراً العلم بأصول الطريق الذي يريد سلوكه[٢٢] .

ولهذا لم يكن غريبا أن تتنوع مؤلفات الشيخ ، وأن تعالج موضوعات شتى تتناسب مع حجم الجهاد ، وطبيعة المناطق التي انتشر فيه الدين الاسلامي ، وكانت الموضوعات الدينية تحظى

باهتمام الشيخ عثمان ، لأن دعوته كانت إحياء السنة واخماد البدعة الشيطانية . فألف عدداً كبيراً من الكتب حول هذا الموضوع ، ولعل أشملها وأهمها كتاب «احياء السنة واخماد البدعة» الذي تضمن ثلاثا وثلاثين بابا دارت كلها حول أمور العقيدة ، وأصول الدين ، والى جانب هذا الكتاب ألف الشيخ عدداً آخراً من المؤلفات الدينية مثل «حصن الافهام من جيوش الأوهام» ، «نجم الاخوان يهتدون به باذن الله في أمور الزمان» وكتاب «سراج الاخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان» ، وأيضاً كتاب «إقتحام المنكرين في الزجر عن البدع والاهواء» . وكتاب «نصيحة أهل الزمان» ، وكتاب «أصول الدين» ، وغيرها من الكتب التي عالجت أمور العقيدة المحمدية .

ولم تقتصر مؤلفات الشيخ على الأمور الدينية ، بل راح يناقش مسائل تتصل بالنظم الاجتماعية والسياسية ، وكانت «وثيقة أهل السودان» حربا على الكفرة والوثنيين ، كما وضح الشيخ أسس المجتمع الاسلامي في كتابه «ضياء السياسات وفتاوي النوازل في فروع الدين من المسائل» كما تناول الحديث عن بلاد الهوسا وأسباب الصراع بين زعمائها في كتابة «تنبيه الاخوان على أحوال أرض السودان» ، وعالج أيضاً بعض الموضوعات الاجتماعية في مقالة تحت عنوان «مسائل المعاملة» ، ومقالة بعنوان «نور الالباب» ، وأخرى بعنوان «ارشاد الاخوان الى أحكام خروج النسوان» ، وغيرها من المؤلفات التي دارت حول الكثير من المشكلات الاجتماعية والقضايا السياسية[٢٣] . وباختصار عالج الشيخ عثمان كل الأمور الاجتماعية التي تضمن بناء مجتمع متكامل يعرف فيه كل الأمور الاجتماعية التي تضمن بناء مجتمع متكامل يعرف فيه كل فرد ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، في اطار من التكافل الاجتماعي والسير على السنة النبوية الشريفة .

ونظراً لآن الشيخ عثمان كان صوفيا يتبع الطريقة القادرية ، فقد نالت هذه الطريقة قسطا كبيرا من مؤلفاته ، وعالجها في الكثير من المناسبات ، حتى يزيل اللبس حول كافة القضايا الصوفية ، فأعلن مع بداية جهاده انه شاهد رؤيا وهو في سن الأربعين وأنه جالس في اجتماع يضم سيد البشر ، ومعه الصحابة والشيخ عبد القادر الجيلاني ، الذي قلده سيف الحق ، وطلب الصحابة منه إعلان الجهاد ضد أعداء الله[٢٤] .

وقد شرح الشيخ عثمان الطريقة القادرية في كتاب «السلاسل القادرية للأمة المحمدية» ، وأيضاً في مقالة بعنوان «تطييب قلوب الأمة المحمدية بذكر بعض القصائد القادرية» ، وأيضاً في مقالة «السلاسل الذهبية للسادات الصوفية» وبالطبع ساعدت هذه المؤلفات على جعل الطريقة القادرية أكثر الطرق شيوعا في غرب أفريقيا .

وعالج الشيخ عثمان بن فودى قضية أخرى شاعت في زمانه بشكل واضح ، الا وهي قضية المهدي المنتظر في غرب أفريقيا ، خصوصاً بعد أن كثرت مؤلفاته حول هذه القضية ، وأعتقد الناس أنه المهدي المنتظر ، فكان الواجب يحتم عليه الحديث عن المهدي وخصائصه ، ولكي ينفي عن نفسه فكرة أنه المهدي المنتظر ، حدد الشيخ صفات المهدي ، وأنه من ذرية فاطمة الزهراء ، وان وقت ظهوره متأخر حتى قدوم الدجال ونزول عيسىء بن مريم . وقد تناول الشيخ هذه الأفكار عن المهدي والمهدية في كتاباته «النبأ الهادي الى أحوال الامام المهدي» ، و«تحذير الاخوان من إدعاء المهدية الموعود به آخر الزمان» ، «والقول المختصر في المهدي المنتظر» .

ولقد ساعدت مؤلفات الشيخ عثمان بن فودى على تقبل أفكار المهدية عندما ظهر محمد أحمد المهدي في سودان وادي النيل ، بعد أن تأثر بكتابات الشيخ عثمان وتأييد أحد أحفاد الشيخ عثمان - ويدعى حيات بن سعيد - لمحمد أحمد المهدي كما ظهرت آثار الأفكار المهدية في حركة الشيخ أحمد لوبو في منطقة ماسينا ، حيث ادعى بأنه المهدي المنتظر ، وأنه قد جاء لانقاذ المجتمع الاسلامي في أفريقيا ومجاهدة الوثنية بكل ما يملك من قوة .

ولم يتوقف الشيخ في مؤلفاته عند هذا الحد ، بل كان يقرض الشعر وله بعض القصائد المشهورة مثل «مرآة الفرائض» وقصيدة «في مدح الرسول» والتي استهلها بقوله :

هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعا   لأزور قبر الهاشمي محمد
لما فشا رباه في أكنانها   فتكمش الحجاج نحو محمد

كما ألف قصيدة يعبر فيها عن حبه لأستاذه محمد المختار الكنتي العالم الصوفي الورع والتي جاء فيها :

بلغ تحياتي الى المختار   سراجنا في هذه الامصار
وقل له ليدع بالخيرات   في هذه الدنيا وفي المهات
وفي حلول القبر والقيام   بلغه يا شريف بالسلام
يارب زد لشيخنا المختار   كرامة التوفيق في الاخبار

وألف أيضاً قصيدة يمدح فيها أستاذه جبريل بن عمر ويقول في مطلعها :

ان قيل مني بحسن الظن ما قيلا   فموجة أنا من أمواج جبريلا

وهكذا غلبت على مؤلفات الشيخ عثمان بن فودى التكامل والشمول والتنوع ، حيث عالج

شتى جوانب الحياة الانسانية ، وقضايا المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما اتسمت هذه المؤلفات بكثرة التكرار حتى في الموضوع الواحد وفي أكثر من مؤلف ، كما غلب عليها كثرة النقل من كتب العلماء والائمة وهذا ما يوحي بأن الشيخ عثمان كان واسع الاطلاع محيطا بأصول الدين ، وحفظ الحديث الشريف والقرآن الكريم ، والى جانب كل هذا أتسم أسلوبه بالبساطة في كل مؤلفاته ، وكذلك المرونة في التعبير باللغة العربية ، مما ساعد على نشرها في معظم أرجاء غرب أفريقيا .

خامسا : آثار الجهاد ودعوة الشيخ في غرب أفريقيا :

مما لا شك فيه ان حركة الشيخ عثمان بن فودى قد تركت آثارها في كل منحى من مناحي الحياة ليس فقط في دولة سوكوتو وشمال نيجيريا ، بل تخطتها الى كل السودان الغربي ، وصارت الدعوة الأم لكل الحركات الاصلاحية التي أجتاحت المنطقة طوال القرن التاسع عشر ، وسوف نذكر أهم آثار جهاد عثمان بن فودى في النقاط التالية :

أولا : ساعـدت حركة جهاد عثمان بن فودى على جعل اللغة العربية لغة التعليم والدراسة ، وصارت مناهج التعليم في دولة سوكوتو تعتني أساسا بتحفيظ القرآن الكريم ، وتفسيره باللغة العربية ، وصار معهد الشيخ عثمان من أكبر المعاهد الدينية في نيجيريا ، بالاضافة الى عدد آخـر من المدارس القرآنية ، التي ساهمت في نشر الثقافة العربية وتطوير اللغة العربية ، مما أحدث ثورة ثقافية في مجتمعات غرب أفريقيا ، وأقبل الناس على تعلم هذه اللغة ، وقام العلماء بشرح وتحليل هذه المؤلفات والتعليق عليها ، بل وترجمة عدد منها الى اللغات الأجنبية ، وبفضل مؤلفات الشيخ عثمان باللغة العربية صارت اللغة تتفوق من حيث سعة الانتشار باعتبارها لغة القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

ثانيا : ساعدت حركة جهاد عثمان بن فودى على نشر الطريقة الصوفية القادرية التي صارت تنافس الطرق الصوفية الأخرى ، وخاصة الطريقة التيجانية حيث كان لكتاباته أثرها في انتشار الأفكار الصوفية ، والتي لعبت دوراً في نشر التعليم والثقافة الاسلامية ، والتصدي الى البـدع والخـرافـات التي سادت مجتمعـات غرب أفـريقـا ، جنبا الى جنب مع الدراسة والتعليم ، وتحملت الطريقة القادرية عبء التعليم في المنطقة .

ثالثا : ساعدت دعوة الجهاد التي قام بها عثمان بن فودى على أحياء مجد الدولة الاسلامية في ذلك الجزء من القارة الافريقية ، حيث انشأ الشيخ في دولته مناصب عربية مثل الوزير والقاضي

والمحتسب والوالي والحاجب وشيخ الاسلام ، وغيرها من الالقاب التي شاعت في صدر الدولة الاسلامية أيام الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين فأحدث ذلك أحياء للخلافة الاسلامية في غرب أفريقيا بعد ان حمل الشيخ لقب أمير المؤمنين ، وحتى بعد وفاة الشيخ عثمان في عام ١٨١٧ استطاع أمير المؤمنين ، وحتى بعد وفاة الشيخ عثمان في عام ١٨١٧ استطاع أبناؤه مواصلة مسيرة الجهاد ، وتطبيق الشريعة الاسلامية التي حمل لواءها أبناء الشيخ وأحفاده حتى سقوط الدولة في ايدي القوات البريطانية في عام ١٩٠٣ ، ولا تزال مدينة سوموتو تمثل العاصمة البريطانية في عام ١٩٠٣ ، ولا تزال مدينة سوكوتو تمثل العاصمة الروحية للدين الاسلامي في دولة نيجيريا .

رابعا : كانت حركة جهاد الشيخ عثمان بن فودى أول تجَرْبة اسلامية تجمع تلك المنطقة الشاسعة تحت لواء دولة واحدة ، بل كانت أول دولة اسلامية تجمع تحت راياتها عدة ممالك وأوطان من بلاد الهوسا وتفرض السكينة والأمان في ربوع منطقة كانت الفوضى والحروب والصراعات الدموية أبرز سماتها في القرون السابقة لحركة الجهاد والدعوة الاسلامية ، كما استطاعت هذه الحركة الاصلاحية ان تكسب هذه المنطقة طابعا اسلاميا لازال أثره باقيا حتى يومنا هذا ، حيث لا تزال نيجيريا أكبر دولة اسلامية في القارة الافريقية على الاطلاق ، ببفضل تلك الجهود المباركة لدعوة الشيخ عثمان بن فودى ، تلك الدعوة التي بددت الظلام ، وجعلت نور الاسلام يشرق من جديد على غابات وصحاري غرب أفريقيا .

خامسا : صارت دعوة الجهاد الفولاني التي قادها عثمان بن فودى وحمل لواءها أخوه عبد الله بن فودى وابنه محمد بلو النموذج والمثل الأعلى لغيرها من حركات الجهاد والدعوة الاسلامية في غرب أفريقيا ، بل وأصبحت أم الحركات الاصلاحية ، ورائدة التحرر والجهاد الاسلامي لنشر الدين الحنيف في كثير من مجتمعات غرب أفريقيا ، حيث صارت المنهل العذب والمورد الكافي الذي استقى منه أحمدو لوبو حركته الاصلاحية في منطقة ماسينا ، وأيضاً الحاج عمر الفوني التكروري في السنغال ، وحركة زعماء بورنو والشيخ الكانيمي ، وأيضاً حركات الجهاد الأخرى مثل حركة مابا دياهو في جامبيا ، وحركة ساموري نموذجاً لحركات الاصلاح والتجديد ، ونشر الدين الاسلامي في غرب القارة الأفريقية .

سادسا : كان لحركة جهاد الشيخ وما أعقبها من حركةفكرية ونهضة علمية شاملة أثرها في تغير المفاهيم والأفكار بين الناس ، كما كانت السبب في انتشار فكرة المهدية وذيوع صيتها ، وتقبل الناس لها والالتفاف حول من ادعوا المهدية فيما بعد ، فلقد اضطر الشيخ عثمان الى نفي فكرة انه المهدي المنتظر ، لكن هذا النفي ساعد على انتشار الفكرة في المناطق المجاورة ، بل وكانت مؤلفات الشيخ من ممهدات قيام محمد أحمد المهدي بحركته في سودان وادي النيل وتقبل الناس للفكرة حيث تعاطف معها مكان دولة سوكوتو ، وسكان حوض بحيرة تشاد ، كما ساعدت أفكار الشيخ على ظهور حركات مهدوية أخرى في ماسينا وغرب القارة .

وباختصار ساعدت دعوة الجهاد الشيخ عثمان على تغير جذري وشامل في كل مجتمعات غربي أفريقيا طوال القرن التاسع عشر ، حيث ترسخت العقيدة الاسلامية . وانتشرت اللغة العربية ، وصارت مؤلفات زعماء الجهاد أساس النهضة الفكرية والثقافية في غرب القارة ، وحتى بعد سقوط الدولة الاسلامية في مطلع القرن العشرين في أيدي القوات البريطانية ، لم يتمكن المستعمر من طمس هذه الحضارة الراسخة ، وحاول الابتعاد عن نظم ثابتة تسير وفق الشريعة الاسلامية ، واعتادها الناس فترة من الزمان ، ولم يجد البريطانيون إلا الابقاء على هذه النظم السياسية المتكاملة ، وراحوا يبدعون بأنهم طبقوا نظام الحكم غير المباشر في هذه المناطق الاسلامية ، حفاظا على تراثها الاسلامي العريق ، وظلت نظم الاسلام وتعاليم الشيخ عثمان يتوارثها المسلمون جيلا بعد جيل ، حتى تحقيق الاستقلال لهذه الأراضي الاسلامية ، وعادت سوكوتو ومراكز الحضارة الكبري في شمال نيجيريا تواصل المسيرة على نهج الشيخ عثمان بن فودى زعيم حركة الاصلاح والدعوة الاسلامية في غرب أفريقيا .

والســـــؤال :

كيف كان نظام الحكم في هذه الدولة الإسلامية التي أسسها الشيخ عثمان بن فودى ؟ وما هو مفهوم الخلافة ولقب أمير المؤمنين لدى الشيخ عثمان ؟

بعد أن نجح الجهاد وتكونت الدولة الاسلامية ، وضم الشيخ مختلف إمارات بلاد الهوسا داخل إطار واحد ، قام الشيخ بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وقسم الدولة الى عشرين ولاية ، وحمل لقب أمير المؤمنين خاصة بعد اعلانه وثيقة أهل السودان ، وقبل وفاة الشيخ وضع نظام الخلافة الاسلامية تشبها بالخلفاء الراشدين ، ووجد الشيخ عثمان أن نظام الخلافة العباسي هو أفضل النظم لحكم هذه الدولة المترامية الاطراف ، ولذا نجد التشابه بين نظام الحكم في دولة

الفولاني والنظام العباسي ، فالعباسيون اتجهوا الى الأخذ بالنظام الاتحادي وقنعوا بمجرد الإشراف والتوجيه وهو ما طبقه الشيخ . كما أن الخلافة العباسية استجابت للمتغيرات في الدولة ، وجمع الخليفة بين الخلافة والأمامة ، وتحول الامام الداعية الى خليفة يحكم ، وهو نظام سارت عليه دولة الفولاني . وكانت الخلافة في العصر العباسي الأول قاصرة على البيت العباسي دون غيره يتولاها أفضلهم بشرط بيعة الناس له ، وفي خلافة الفولاني اقتصر اختيار الخليفة على سلالة عثمان ، كما كانت الخلافة العباسية للأقدر وليست وراثية مستقرة في الأبناء ، وهو ما ساد عند خلفاء عثمان .

والخليفة في العصر العباسي عام الولاية ، عام الاختصاص ، يسري حكمه على كل أنحاء الدولة ، وهو يمارس حكمه في كل مجال من الأمور الدينية والسياسية والمدنية والحربية ، وله الحق في تفويض من يشاء بما يشاء من الاختصاصات . وقد طبق هذا النظام في خلافة الشيخ عثمان . وإذا كان العباسيون قد ساروا على مبدأ اختيار الخليفة لوزير يتولى تنفيذ أوامره كاملة ، فإن عثمان انتهج نفس الطريقة مع إعطاء الوزير سلطات أكثر .

ومع كل هذا ، فإن بعض الاختلافات قد حدثت عند التنفيذ ، ومنها أن الهيئة المختصة باختيار الخليفة وهم أهل الحل والعقد وأهل الشورى كانوا من أفراد البيت العباسي ، ولكن في خلافة الفولاني كان مجلس الاختيار يتكون من أفراد من خارج أسرة عثمان ، وكان الوزير صاحب الكلمة النهائية في الاختيار . وأيضاً نجد أن الخلافة العباسية سارت على نظام ولاية العهد كما كان في عصر بني أمية حيث كان الخليفة يختار ولي عهده من البيت العباسي على أساس القدرة وليس على أساس الرشد لكن في خلافة عثمان لم نجد نظام ولاية العهد ، وكان اختيار الخليفة الجديد يتم بعد وفاة الخليفة الحاكم عن طريق مجلس الاختيار الذي يعين الخليفة حسب قواعد عامة[٣٥] .

وبعد اختيار الخليفة في دولة الفولاني ، فإنه يحمل لقب أمير المؤمنين ذلك اللقب الذي حمله الشيخ في بداية الجهاد ، وقد استعان الخليفة بمجلسين أحدهما استشاري وهو يضم أبرز أعوانه ومساعديه ، والآخر تنفيذي يقوم بتنفيذ تعليمات الخليفة الذي يعين أعضاء هذا المجلس ويضم الوزير والقاضي والمحتسب وتحددت اختصاصات الخليفة في حماية حقوق الرعية داخل المجتمع الاسلامي ، وحماية الدولة عن طريق بناء المدن المسورة المحصنة حتى يتفادى هجمات الأعداء ، وأيضا العمل على نشر الدعوة الاسلامية بين القبائل الوثنية واعداد الجيوش للتصدي للغزاة ، وهو الذي يعين الشخصيات في الوظائف الهامة ويختار الأمراء وحكام المديريات . وقد حدد عثمان نظام الحكم في الدولة وضمنها في خمسة أسس هي :

أولا : ألا يعطي الولاية طالبها .

ثانيا : الالتزام بمبدأ الشورى .

ثالثا : التخلي عن القسوة والعنف .

رابعا : إقامة العدل بين الناس .

خامسا : الاحسان والأعمال الصالحة(٢٦) .

لذا يمكن القول إن الخلافة في رأي الشيخ عثمان هي المجال الذي يرى فيه الناس ترجمة مبادىء الاسلام وتعاليمه في أسلوب عملي لواقع الحياة ، وفي رأيه أن الخلافة يقيمها المسلمون في أي مجتمع اسلامي(٢٧) .

وكان الشيخ يعرض الألقاب والمناصب على أساس انها أمور دنيوية عارضة ، وباستثناء منصب الوزير لقتصرت المناصب في ستة فقط هي القائد العام ، وقاض القضاة ، ورئيس الشرطة ، وحامل اللواء ، وصاحب الخراج ، والإمام(٢٨) .

وهكذا وضع الشيخ نظاما فريدا للحكم في هذه الدولة التي قامت في غرب أفريقيا في القرن التاسع ، وظلت تطبق هذا النظام الخلافي حتى سقوط الدولة في أيدي القوات البريطانية في عام ١٩٠٣ ودخلت الدولة ضمن نيجيريا الحالية ، ولكن لازال المسلمون يلعبون دوراً هاما في نشر الثقافة الإسلامية ، ولازالت المعاهد والمدارس التي أسسها عثمان ومن خلفه ينبوع الفكر والثقافة في غرب أفريقيا .

سادسا : عوامل انهيار الامبراطورية الفولانية :

يرجع انهيار امبراطورية الفولاني الى عدة عوامل تجمعت لتسهم في سقوط هذه الدولة في أوائل القرن العشرين وهي :

(أ) اعتماد الخلافة طوال القرن التاسع عشر على مجرد توجيهات الخليفة في أمور الارشاد والدفاع ، وكانت كل امارة تعتمد على نفسها في أمورها الدفاعية ، ولم يقدم الخليفة دعمها عسكريا لأي إمارة بل لم يكلف الامارات المجاورة بمساعدة أية إمارة تتعرض للاخطار ، وبالتالي انشغلت كل إمارة في شئونها الخاصة

(ب) عدم وجود جيش مركزي يتولى أمور الدفاع عن الدولة ، وظلت الإمارات طوال القرن التاسع عشر تعيش على مواردها وعلى المساعدات من الامارات المجاورة .

(جـ) اعتمدت جيوش الدولة على الأسلحة التقليدية والقديمة ، وكانت الحروب التي مارستها الجيـوش تقوم على أساس المدن المسورة التي يقف المدافعون خلفها للدفاع عنها ضد أي اعتداء . لكن هذه الجيوش المسلحة واجهت لأول مرة جيوشا أوربية بالاضافة الى المدافع والبنادق المتطورة ، مما غير سير المعارك لصالح القوى الأوربية .

(د) لم يسبق لجيش دولـة الخـلافـة أن حارب ضد جيش أوربي ، ومن ثم كان يجهـل خططه وأسلحته ، هذا في الوقت الذي كانت الجيوش الانجليزية على دراية كاملة بكل الخطط في الامـارات ، وقـد سهـل هذا على الـبريطانيين مهمة الاستيلاء على الامارات الواحدة تلو الأخرى ، طبقاً للسياسة التي رسمها القوّاد البريطانيون .

(هـ) أن دولة الخلافة لم تستطع ان تنسق عمليات المقاومة مع الامارات التابعة لها ، مما جعل هذه الامارات فريسة سهلة أمام هذا الغزو الأوربي ، ولم يشعر الخليفة بهذا القصور في خططه إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن أطبق الأوروبيون على الدولة من كل جانب ، فسقطت الامبراطورية في أيدي البريطانيين ، رغم البسالة والمقاومة الوطنية الباسلة التي قادها الخليفة وأعوانه المخلصين .

لكن رغم سقوط الخلافة ، وضم المنطقة الى النفوذ البريطاني ، فقد ظلت الأسس التي وضعهـا الشيـخ عثمان وخلفاؤه هي دعائم الحضارة الاسلامية في نيجيريا ، ولازال المسلمون يمارسـون دورهم في الحفاظ على الدين الاسلامي ، وفي تطبيق الشريعة الغراء في أكبر منطقة إسلامية ، من حيث عدد السكان في القارة الأفريقية .

وخلاصة القول إن الخلافة الاسلامية في سوكوتو قد اتخذت من الدولة العباسية نموذجا لها في الحكم ، كما أنها أقـامت نظامـا فريـداً من نوعـه في غرب القـارة ، استقى من كل النظم الإسلامية ، وصار نموذجا لكل الحركات الجهادية في غرب القارة ، وتمسك المسلمون بمباديء الشريعـة الاسلامية ، وطبق الخلفاء على مدى قرن من الزمان هذا النظام الاسلامي ، وتعود الناس عليه وألفوه حتى بعد الغزو البريطاني ، وصارت الأسس التي وضعها الشيخ عثمان دستورا للحياة ، كما أصبحت مؤلفات الشيخ وأتباعه مصدر الفكر والإلهام الثقافي .

إن خلافة الشيخ عثمان بن فودى تعتبر رائدة حركات الإصلاح والجهاد في سبيل الله في غرب أفريقيا ، وحامية الدين الإسلامي ضد كل من سولت له نفسه العبث بأحكامه ، وحتى عندما جاء المستعمر البريطاني وأخضع الدولة لسلطاته ، لم يتمكن من إحداث أية تغييرات في هذه الأسس الراسخة ، التي لازالت تشع بنورها حتى اليوم .

الهوامش :

(١) ابراهيم طرخان : دولة مالي الإسلامية ، ص ٥٢ ـ ٥٩ ، وشكل رقم (٤) .

(٥) لمزيد من الدراسة عن انتشار الإسلام في أفريقيا : انظر حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

(٣) Dubois, F : Tomboctu, La Mysterieuse, Paris 1899, P, 153 -

(٤) Seligman, c. : Races of Africa, London 1970, P. 96 -

(٥) ابراهيم على طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٣٠ .

(٦) Johnston, H. A. S. : The Fulani Empire of Sokoto, London 1967, P. 18 -

(٧) محمد بلو : انفاق اليسور في تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٥٨ .

(٨) تحدث الشيخ عبد الله بن فودى عن الجهاد ومراحل تكوين الدولة الاسلامية في كتاب تزيين الورقات ، نيجيريا عام ١٣٨٣ ها (بالخط المغربي) . كما تحدث أيضاً عن الجهاد الشيخ محمد بلو : إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة ١٩٦٤ .

(٩) Martin, B. G. : Muslim Brotherhoods in 19th century Africa, London 1976, PP - 1 - 13 -

(١٠) محمد بلو : انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٧ ـ ٢٥ .

(١١) عثمان سيد أحمد اسماعيل : حركتا الشيخ عثمان بن محمد بن فودى ومحمد أحمد بن عبد الله المهدي وأثارهما : مجلة دراسات أفريقية بالخرطوم ، العدد الثاني ، ابريل ١٩٨٦ ، ص ٣٥ ـ ٥٣ .

(١٢) Ki Zerbo, Joseph : Histoire de 1' Afrique Noir, P - 175 -

(١٣) Panikkar, k - Madhu : Journal of African History, P - 175 -

(١٤) عثمان بن فودى (وثيقة أهل السودان) تحقيق

Bivar, A. D. H. : Journal of African History' Vol II, 1961, P - 235 -

(١٥) عبد الرحمن زكي : الاسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ٩٢ .

(١٦) Smaldone, J - P - : Warfare in the Sokoto Calliphate, P - 23 -

(١٧) Meek, C. K. The Northern Trides of Nigeria. Vol. I., P, 100 -

(١٨) Hodgkin, T. ? Nigerian Perspectives, PP - 3840 -

وأيضا حسن أحمد محمود ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

(١٩) توماس أرنولد : الدعوة الى االاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٦٠ .

(٢٠) Meek, C. R. : Tridal Studies in Northern Nigeria, vol. II, P. 5 -

(٢١) محمود سلام زناتي : الاسلام والتقاليد القبلة في أفريقيا ، ص ٩٤ .

(٢٢) عثمان بن فودى : حصن الافهام من جيوش الاوهام (مخطوط٠ ، ص ٣ ، ٣ .

(٢٤) عثمان بن فودى : ولما «بلغت في الذكر والورد» ، وهو كتاب نشرته لجنة النشر بوزارة المعارف بنيجيريا الشمالية ضمن سلسلة ضمت كتاب «أصول الولاية» و«هداية الطلاب» .

(٢٥) أنظر نظام الحكم في : عبد الله عبد الرازق : الاسلام والحضارة الاسلامية في نيجيريا ، ص ١١١ وما بعدها .
ولمزيد من الدراسة عن الخلافة العباسية انظر : حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، الطبعة السابعة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٣٠ وما بعدها .

(٢٦) عثمان بن فودى : الفرق بين ولاية أهل الاسلام وأهل الكفر ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٢٧) السر سيد أحمد العراقي : نظام الحكم في الخلافة المكتبية : مطبوعات جامعة الخرطوم ، السودان ١٩٨٧ ، ص ١١ .

(٢٨) Last, M. : Op. Cit. P. 107 -